

مع مازن المبارك في محاضراته

«مع التراث: منهج ونتائج»

أ. د. عبد النبي اصطيف^(*)

مازن المبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وعميد كلية الدراسات العربية والإسلامية في مجمع الفتح الإسلامي في جامعة بلاد الشام، وأستاذ العربية السابق، بل أستاذ الأساتيد الأعلى، في جامعة دمشق، وفي غيرها من الجامعات العربية، وصاحب المؤلفات الصوى في لغة القرآن وما يتصل بها من قضايا ومسائل، قامة لا نظير لها في الثقافة العربية الحديثة في سورية، بل في الوطن العربي، بخبرته الطويلة بهذه اللغة، وإسهاماته المهمة في تدبُّر مختلف جوانبها، ومشاركاته العامة في الحديث عن مزاياها وخصائصها وشؤونها عامة.

وهو بحق الأستاذ المهيمن في قاعات درسه، والذي لا يناع سلطان معرفته الواسعة، وعلمه الغزير بموضوع درسه، أي سلطان؛ وهو المؤلّف الذي يكتب بلغة واضحة دقيقة ومكثفة؛ وهو المُحاضر الذي يأخذ بألباب جمهوره؛ وهو المُتحدّث الذي لا يملّه جليسه. وكيف لامرئ مثلي عرفه

(*) أستاذ في جامعة دمشق.

تلميذاً، وقارئاً، ومتابعاً لمحاضراته المجمعية والعامة ولما يسهم به من أحاديث في وسائل التواصل العامة، أن يكون محايداً في الحديث عن الرجل، أو حتى في مناقشة أي ضرب من ضروب مشاركاته الفعالة في خدمة العربية، خاصة وأني عملت معه على مدى عام كامل في «مشروع الأنموذج المقترح لخطة تدريس اللغة العربية وآدابها في الدرجة الجامعية الأولى في الوطن العربي»^(١)، الذي أُعد بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ونُشر من جانب المركز العربي لبحوث الدراسات العليا بدمشق عام ١٩٨٦م، وأفدت من خبرته البحثية والعلمية فضلاً على خبرته الحياتية، وتعلمت الكثير من أخلاقه وأدبه، وزاملته بعد عودتي من الإيفاد في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق، والمعهد العالي للفنون المسرحية، ولاحقاً بعد عودته من الإمارات في جامعة بلاد الشام، والواقع أن تلمذتي عليه: تلمذة الحضور، وتلمذة السطور، وتلمذة المجاورة، التي امتدت نحواً من نصف قرن أو يزيد، لم تزدني إلا محبة له، وإكباراً لدوره في خدمة العربية، وتفهماً لما أخذ نفسه به من رسالة في النهوض بالأمة ولغتها.

محاضرته «مع التراث: منهج ونتائج»

عندما تتحدث الخبرة، المشفوعة بالمعرفة، والمسكونة بالصدق، والمصوغه برائع البيان فإنها تقول الكثير. وهكذا كان حال محاضرة الأستاذ الدكتور مازن المبارك التي حملت عنوان «مع التراث: منهج ونتائج»، والتي ألقاها في قاعة محاضرات مجمع اللغة العربية بدمشق في السابع والعشرين

(١) انظر: د. مازن مبارك، د. حسام الخطيب، د. عبد النبي اصطيف، مشروع الأنموذج المقترح لخطة تدريس اللغة العربية وآدابها في الدرجة الجامعية الأولى في الوطن العربي، (المركز العربي لبحوث التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٦).

من شهر نيسان عام اثنين وعشرين وألفين. فقد كانت محاضرة غنية بكل شيء، ومع أن صاحبها قد تحدث ضِعْفِي ما خُصَّص له من وقت فإن جمهوره كان متلهفًا لسماع المزيد، يسعد به ويفيد منه، في جلسة كانت إمتاعًا ومؤانسة، مثل ليالي أبي حيان التوحيدي.

وربما كان من أهم ما دللت عليه، وأقنعت به كل محب للعربية - لغة الذكر الحكيم - من المجمعين والجامعيين مجموعة أمور، أبرزها:

١- أن الكلمات في العُرف العام قد تكون مترادفة، غير أن «الصانع الماهر لا يُغفل الفروق الدلالية الدقيقة بين ما يُسمى المترادفات. وهذه الدقة في الفروق بين معاني المترادفات ليست مما يتطلبه التعبير العلمي الدقيق في التمييز بين مصطلحاته العلمية فحسب، ولكنه مما يتطلبه التعبير اللغوي، سواء أكان علمًا من العلوم أم فنًا من فنون الأدب» (ص ١). والواقع أن علوم اللسان الحديثة والمعاصرة لم تقرّ بوجود المترادفات إلا في حدود ضيقة جدًا، وذلك عندما تستعمل تسميتان أو أكثر للإشارة إلى المسمى نفسه في أماكن متباعدة، والأستاذ المبارك محق في التنبيه على الفروق الدلالية الدقيقة بين المفردات لتبديد وهم كثرة المترادفات في اللغة العربية.

٢- أن على المؤلف، والكاتب عامة، إلباس معانيه ما يناسبها من الألفاظ، وهو أمر لا تكفي فيه الفطرة السليمة التي تُكتسب بكثرة المطالعة لأمّهات كتب التراث، ومخالطة فصحاء العربية، بل لابد من شفع السليقة السليمة بالسعي للتزود بثروة لغوية واسعة، «لستطيع الفطرة أن تختار من الألفاظ ما يناسبها من المعاني» (ص ٢).

٣- أن المتن اللغوي العربي أوسع من أن تحتويه المعاجم العربية القديمة

والوسيلة والحديث، وأن على دارس هذا المتن ألا يقتصر، في تتبعه له، على هذه المعاجم، بل عليه أن يلتمسه كذلك في كتب الأدب واللغة، ولا سيما المؤلفات قبل هذه المعاجم؛ «فالمعجم وحده لا يكفي لشرح ما نريد شرحه من نصوص التراث»، و«المعجم العربي لم يحو لغة العرب كلها أولاً، وإن للعرب أساليب في التعبير تجاوزت حدود المعاني الضيقة للمفردات، مما جعل شراح الشعر ومحققى الدواوين يختلفون في شروحه أو يضلون في بعض ما يذهبون إليه». (ص ٥).

٤- وأن على المتتبع الذي يأخذ نفسه بهذه النصيحة القيمة ألا يكتفي، في مراجعته لهذه المعاجم ولتلك الكتب، بالفهارس والمؤشرات التي قد لا تتخلل مادتها، بل أن يقرأ الكتب من الغلاف إلى الغلاف، إذ قد يأتي الحديث فيها عن موضوع ما، أو مسألة ما، أو فكرة ما، منجّماً، موزعاً على أكثر من فصل، أو موضع. فالمؤلفون القدامى، ولا سيما صنّاع المعاجم، ربما يتركون أو يسهون عن ذكر أمر في موضعه، ثم يذكرونه في غير موضعه عندما يتذكرون ذلك. ومعنى هذا أن الباحث عنه قد لا يجده في مظنة وجوده، ومعنى هذا كذلك أن عليه أن يقرأ الكتاب أو المعجم كاملاً، من الغلاف إلى الغلاف، حتى يستوفي غرضه من بحثه عن هذا الأمر.

٥- وأن «الفصح عند العلماء هو الذي أفصح عن المعنى أولاً، وجاء على القياس ثانياً، لا ما كثر استعماله». ذلك أن الفصح ما خلا من اللحن ومن الشذوذ، وإذا ما وصفوا كلمة بكثرة الاستعمال فالمراد عندهم كثرة استعمال العرب الموثوق بعريتهم لا كل المتكلمين كما يفهم بعض الناس اليوم». «فحقائق العلم واللغة ليست كديموقراطية الانتخابات

تساوى فيها أصوات العلماء وأصوات العامة». (ص ٤).

٦- وكذلك فإن عليه ألا يقصد السواقي في تتبعه لهذا المتن، بل يوطن نفسه على العودة إلى الينابيع، فلا يلجأ إلى المراجع يأخذ عنها، ويحيل قارئه على مصادرهما، موهماً القارئ بصدق إشاراته ودقتها. إذ لا بد من العودة إلى المصادر في طبعاتها المحققة والعالية، ولا يشفع للباحث ذكره أنه إنما ينقل عن مرجع موثوق به، ليعفي نفسه من المساءلة، ويمنح قارئه الثقة بما يضعه بين يديه من أفكار.

٧- وأن يجعل همه بلوغ الحقيقة، وأن يسعى إلى إضافة الجديد في ميدان اهتمامه، وفي موضوع بحثه، وليس مجرد التكرار وقول المعاد؛ وبهذا يكون البحث العلمي تنقياً يهدف إلى العثور على لُقى قيمة ترقى للعرض في متاحف العلم والمعرفة. والناظر إلى الرسائل الجامعية، التي تجيزها الجامعات العربية في الزمن الراهن، إذ لا تستهدف الوصول إلى الحقيقة، فإنها، من ثمّ، لا تضيف جديداً إلى حقل تخصصها، وهي لا تتجاوز دائرة المعاد - المكرور.

والجميل في التدليل على هذه الأمور أن الدكتور المبارك قدّمها من خلال عرضه الشائق الشائك لتجاربه وخبراته العملية في تدبر شؤون اللغة العربية على مدى ما يقرب من ستة عقود. والأجمل أنه عرضها مشفوعةً بالأمثلة الدالة والموثوق بها، ببيان سهل واضح سام يجمع بين المتعة والفائدة، ملتزماً بما أوصى به صاحب كتاب فن الشعر، الناقد - الشاعر الروماني هوارس.